

القراءة اللسانية

د/ مريم بوجناح

قسم اللغة العربية وآدابها

المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة - الجزائر

ملخص باللغة العربية

إن فهم التراث اللغوي القائم على وصفه ونقده ومحيطه يتطلب من الباحثين اللغويين العرب الاعتماد على تصورات وأدوات معرفية حديثة تمكنهم من اكتشاف المزيد من المسائل اللغوية من زاوية نظر أخرى، ومن بين هذه الأدوات ظهر ما يعرف بمنهج "القراءة اللسانية" التي تحاول الربط بين الفكر اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديثة مع إقامة مقابلة بين المفكرين في عدة مواضيع لغوية وهذا بهدف إعطاء النظرية اللسانية العربية التراثية مكانتها اللائقة بها في إطار مراحل الفكر اللغوي الإنساني، ونظرا لأهمية هذا الموضوع سلطنا الضوء في مقالنا على مفهوم القراءة اللسانية وحددنا أنواعها ثم قدمنا نموذجا لها لنختم العمل بتقييم لهذا المنهج اللساني المستحدث.

Résumé :

La compréhension du patrimoine linguistique basée sur la description et la critique nécessite une vue et une prévoyance en outils modernes de compréhension de la part des chercheurs linguistiques arabes.

Afin de pouvoir explorer davantage et d'un angle de vue différent, Le vaste domaine de la linguistique, parmi ces outils, il y a « la lecture linguistique » qui essaye de rapprocher le lien entre la pensée linguistique coté arabe et les théories de la recherche linguistique modernes, en mettant sur pied de part et d'autre les deux pensées dans plusieurs thèmes linguistiques, et ce dans le but de donner à la théorie linguistique arabe

patrimoniale, la place qu'elle doit occuper dans le cadre des étapes de la pensée linguistique de l'homme, et vue l'intérêt de ce sujet, nous nous sommes basés sur la compréhension de la lecture linguistique, et présenter un model et d'aboutir en fin à la valorisation de cette approche linguistique redéveloppée.

الكلمات المفتاحية:

القراءة اللسانية، التراث اللغوي، النظريات اللسانية الغربية، المقارنة اللغوية، الربط بين الفكرين، لسانيات التراث.

تمهيد:

إن عملية الربط بين الفكر اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديثة من المسائل المهمة والقضايا الملحة التي أصبحت تشغل فكر الباحثين اللغويين المحدثين العرب خاصة في القرنين الأخيرين، وعملية الربط هذه تحتاج إلى جانبيين أو لنقل ركيزتين أساسيتين هما: التراث اللغوي العربي والنظريات اللسانية الحديثة التي ساهمت في نشوء البحث اللغوي العربي الحديث، فبالإمكان لدى العودة إلى مؤلفات القدامى ملاحظة الجهود الهائلة الذي قاموا به في مجال دراسة اللغة والعناية الدقيقة التي بذلوها في جميع أصول اللغة ولم تستأثرها واستنباط أحكامها في سبيل الكشف عن أسرارها بهدف الحفاظ عليها، وهذا ما أكدّه حسام البهنساوي بقوله: " لا ينكر أحد ما بذله أسلافنا من جهد كبير في البحث والتنقيب ومشاهدة العرب وجمع ألفاظ اللغة وتبويبها في أنواع شتى من الترتيب والتبويب وفي أبنية الكلمة ونظام الجملة ووظائف الكلمات في داخل الجمل...".⁽¹⁾

أمّا فيما يخصّ النظريات والعلوم اللسانية الغربية الحديثة التي بدأت في الظهور والتوسع مع العالم اللغوي "فرديناند دي سوسير" ومختلف المدارس التي ظهرت بعده فقد كانت مساهمتها فعّالة في تطوير البحث اللساني العربي الحديث والكشف عن بعض النظريات والمفاهيم اللغوية التي وجدت في التراث اللغوي العربي، ولم ينتبه إليها الباحثون من قبل.

إن هذا الجمع بين الأصالة والمعاصرة تمخّض عنه ميلاد ما يعرف بالقراءة اللسانية، وسنحاول في مقالنا هذا تحديد مفهوم هذا المنهج (القراءة اللسانية) تقديم نماذج لهذه القراءة ونختتم بتقييمها من خلال عرض الإيجابيات والسلبيات.

1. مفهوم القراءة اللسانية وأنواعها:

أ. المفهوم اللغوي للقراءة:

جاء في لسان العرب لصاحبه ابن منصور في معنى مادة قـراً:

قرأت الشيء قرأنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض..

تقرء: تفقه وتقرأ تنسك.

الإقتراء: افتعال من القراءة.

وقارؤه: دراسة.

واستقرأه: طلب إليه أن يقرأ.

ورجل قرء: حسن القراءة من قوم قرّائين⁽²⁾

ب. المفهوم الاصطلاحي للقراءة:

ينطوي مصطلح "قراءة" على عدّة مفاهيم بحسب الموضوع الذي نعالجه فنجد:

القراءة القرآنية، القراءة السياسية، القراءة الفلسفية، القراءة الاجتماعية، القراءة

اللسانية.

تهتم هذه الأخيرة بالدراسات اللغوية والنظريات اللسانية الحديثة ومحاولة ربطها بالتراث اللغوي العربي وهذا ما أشار إليه مصطفى غلفان من خلال قوله "الدعوة إلى ضرورة دراسة الفكر اللغوي العربي القديم من حيث أنّه تصورات ومفاهيم وطرق تحليل في ضوء النظريات اللسانية الحديثة، أنتج كتابة قائمة بذاتها وهي ما يعرف بـ: (لسانيات التراث)، وتكاد السمة المميّزة لهذا الصنف من الكتابة اللسانية تتمثل في سعيها إلى التوفيق بين مضامين التراث اللغوي العربي وما تقدّمه اللسانيات من نظريات، ويستعمل لسانيو التراث شتى الوسائل المعرفية لتحقيق غاية التوفيق في إطار ما عرف بـ: (القراءة أو إعادة القراءة)...⁽³⁾

وعليه يمكن القول بأن القراءة بمعنى إعادة النظر في فكر قديم قصد فهم وتقييم جديدين تقوم على المقارنة بين الفكر اللغوي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث ومن خلالهما يقوم الباحثون العرب المحدثون بالكشف عن نقاط الالتقاء بين التراث اللغوي العربي وعلم اللغة الحديث، وإظهار سبق النجاة العرب القدامى في الوصول إلى أفكاره ومناهجه وهذا ما أكّده مصطفى غلفان بقوله "إنّ الكتابة اللسانية القرائية تروم مقارنة التراث اللغوي العربي بالنظريات اللسانية الحديثة مستهدفة البحث عن أصالة التراث وإثباتها بكلّ الوسائل"⁽⁴⁾

2. أنواع القراءة اللسانية*:

تتفرّع القراءة اللسانية إلى عدّة أنواع تدرج من حيث الموضوع أولاً ومن حيث الغاية ثانية ويمكن أن نصفها كالتالي.

أ. من حيث الموضوع:

من خلال المواضيع التي عالجتها الكتابات القرائية في مجال لسانيات التراث يمكننا أن نُميّز بين القراءات التالية:

أ - 1. القراءة الشمولية:

وهي قراءة تتمحور حول التراث اللغوي العربي في كليته وشموليته باعتباره تصورات وطرق تحليل عامة في دراسة اللغة العربية وما يتّصل بها من قاضايا، وهي تستهدف البحث في النظرية اللغوية عند العرب لا من حيث هي تقنيات نحوية وصرفية وبلاغية ومعجمية وإنّما من حيث هي تنظير للظاهرة اللسانية عموماً، على نحو كتاب عبد السلام المسدي)، التفكير اللساني في الحضارة العربية 1981م.

أ - 2. القراءة القطاعية:

تتمحور هذه القراءة حول قطاع معين من التراث اللغوي العربي، كأن يتناول المستوى النحوي أو الصرفي أو الدلالي باعتبارها مستويات تحليل تشكل في حدّ ذاتها نظرية محدّدة المعالم تقوم على مبادئ منهجية خاصة بها، ومن أشهر الدراسات العربية في هذا الاتجاه.

- نهاد الموسى: نظرية النحو العربي في ضوء وجهة النظر اللغوي الحديث.
- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث.
- عبد الرحمان حاج صالح، المدرسة الخليلية والدراسات اللسانية في الوطن العربي، مداخلة أُلقيت في ندوة اليونسكو حول تطوّر اللسانيات في العالم العربي.

أ - 3. قراءة النموذج الواحد:

وهي قراءة تدور حول شخصية لغوية عربية قديمة يُدرس فكرها اللغوي وطريقة تصوّرها وكيفية تناولها لقضايا اللغة العربية في مجال من مجالات البحث اللغوي، ونذكر في هذا الاتجاه:

▪ جعفر دك الباب، نظرية الإمام الجرجاني وموقعها في علم اللغة العام الحديث 1980.

▪ طاهر سليمان حمودة، ابن القيم الجوزية جهود اللغوية، 1976.

ب. من حيث الغاية:

نقصد بالغاية الهدف الذي يسعى إليه كل باحث، ويمكن تقسيمها إلى:

1. القراءة التفاعلية:

تحاول هذه القراءة إعطاء النظرية اللسانية العربية القديمة مكانتها اللائقة بها في إطار مراحل الفكر اللغوي الإنساني لخلق نوع من التفاعل بين الفكر اللغوي العربي القديم والنظريات اللسانية الحديثة القائم على الأخذ والعطاء والقرض والاقتراض بينهما، وتسعى القراءة التفاعلية إلى تحقيق ثلاثة أهداف متكاملة:

▪ صوغ النظريات القديمة في قالب جديد يُتيح المقارنة بينها وبين النظريات الحديثة.

▪ تطعيم النظريات اللسانية العربية الحديثة بروافد نظرية جديدة قد تثبت ما اتفق عليه في الغرب وقد تدحضه.

▪ خلق نموذج لغوي عربي (أو نماذج عدة) من النظريات القديمة بعد أن تقولب و تمحص في إطار النظرية اللسانية وأن تحتك بما تفرع ويتفرع عنها من نماذج لغوية.

▪ إن المقارنة أولاً والتطعيم ثانياً والقبولة والتمحيص والاحتكاك ثالثاً تجسّد المظاهر الفكرية الأساسية للتفاعل المنشود بين الفكر اللغوي العربي القديم والنظريات اللسانية الحديثة، ويعتبر أحمد المتوكل أبرز من كتب في هذا الاتجاه من خلال أعماله:

0 قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني

0 اقتراحاته من الفكر اللغوي العربي لوصف ظاهرة الاستلزام التخاطبي.

2. القراءة التمجيدية:

تنوّ هذه القراءة بالتراث اللغوي وتضفي عليه هالة من العظمة، واضعة آياه على درجة علمية أعلى من النظريات اللسانية الحديثة فمن ذلك نجد عبد السلام المسدي يقول في كتابه (التفكير اللساني في الحضارة العربية)، "إن الفكر اللساني العربي أسبق تاريخياً من النظرية اللسانية المعاصرة، إن العرب يحكم بمميزات حضارتهم، مضى

بهم النظر إلى الكشف عن الكثير من أسرار ظاهرة اللسانية، مالم تهتد إليه البشرية إلا مؤخرا بفضل ازدهار علوم اللسان في مطلع القرن العشرين⁽⁵⁾.
والواقع أنّ هذا النوع من القراءة اللسانية هو السائد في الدراسات والكتابات العربية الحديثة.

3. القراءة الإصلاحية:

تهدف هذه القراءة إلى تخلص النحو العربي من الشوائب والمعوقات العالقة به من تجريد وتعليل وحذف وعامل وتقدير، ومن أبرز الكتابات في هذا المجال كتاب "اللغة العربية معناها ومبناها" لتمام حسّان، إذ حاول تقديم صياغة جديدة تسمح بفهم أفكار النجاة العربي وتخلص النحو من الشوائب ومصادر الشكوى منه، وفي السياق نفسه تندرج المحاولة التي قام بها "عبد الصبور شاهين" في مجال الصرف العرب من خلال كتابه "المنهج الصوتي للبنية العربية - رؤية جديدة في الصرف العربي" 1980.

3. نموذج من القراءة اللسانية:

وقع اختيارنا في هذا المقال على كتاب "ميشال زكريا" والمعنون بـ: "بحوث ألسنية عربية"، بحيث قسمه إلى ثلاثة أقسام، وما يهمنّا في هذا المقام القسم الأول من الكتاب والمعنون "الألسنية والتراث اللغوي العربي" وهو بدوره مقسّم إلى فصلين:
الفصل الأول: استقامة الكلام بين سبويه وتشومسكي.
الفصل الثاني: تعريف اللغة بين العرب القدامى والألسنيين.
وسنأخذ بالفصل الثاني كنموذج يكشف فيه الكاتب عن نقاط الالتقاء بين آراء النحويين واللغويين العرب القدامى وبين أعلام علم اللغة الحديث فيما يخصّ مسألة تعريف اللغة.

يقول ميشال زكريا في مقدمة الكتاب:

"يتناول الموضوع الأول إعادة قراءة التراث العربي قراءة معاصرة على ضوء النظريات الألسنية الحديثة ويهدف وصل الفكر اللغوي العربي بالفكر اللغوي العالمي المتمثل حاليا بعلم الألسنية ومن ثم رفع الضيم الحاصل في مجال تقييم التراث اللغوي وإعادة الاعتبار إلى فكر لغوي عمره أكثر من ألف عام.... فما من تراث لغوي بمعرفتنا يظهر مدى اهتمام أهله بمسائل اللغة كالتراث اللغوي بالذات، وذلك لأن اللغويين العرب قد أولوا دراسة اللغة أهمية بالغة وتوسّعوا في تحليلها من منطلقات علمية

واضحة وفق منهجية وصفية وتفسيرية لا تبتعد كثيرا عن المنهجية العلمية المتبعة حاليا في إطار النظريات الألسنية⁽⁶⁾.

من خلال هذا المقتطف أشار المؤلف إلى ملاحظة مهمة مفادها أن اللغويين العرب القدامى أتوا من خلال تعريفهم اللغة بآراء لغوية متطورة جدا مقارنة بعصرهم فهي لا تقل أهمية عن الآراء اللغوية المعمول بها حاليا في مجال الألسنية. وقدم الكاتب في مؤلفه مجموعة من تعاريف اللغويين العرب للغة مبرزاً أهم المسائل الواردة فيها، وكانت البداية مع (*)

1. ابن جني:

يحدد العالم اللغوي ابن جني اللغة في كتابه "الخصائص" على النحو التالي:
"أما حدّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، فاللغة في نظر ابن جني أصوات يستعملها الإنسان في مجال التعبير عن أغراضه ومقاصده فتعريفه يرتكز على المسائل التالية:

- اللغة أصوات.
- اللغة وسيلة التعبير.
- تختلف اللغات من مجتمع إلى آخر.

2. تعريف اللغة عند ابن سنان الخفاجي:

يحدّد ابن سنان الخفاجي اللغة في كتابه "سرّ الفصاحة" على النحو التالي:
"اللغة هي ما يتواضع القوم عليه من كلام" فنلاحظ أنّ هذا التعريف يحتوي على المسألتين التاليتين:

- اللغة مواضعة أو اصطلاح.
- الاصطلاح قائم بشكل أو بآخر ضمن القوم الذين يتكلمون اللغة الواحدة.

3. تعريف اللغة عند ابن الحاجب والأسنوي:

يحدّد ابن الحاجب اللغة كالآتي:
"حدّ اللغة كل لفظ وضع لمعنى"
ويحدد الأسنوي اللغة كالآتي:
"اللغات عبارة عن الألفاظ الموضوعات للمعاني"
ارتكز التعريفان على المسألتين التاليتين:
- الكلمات تحتوي على المعاني

- اللغة مواضعة.

4. تعريف اللغة عند الكيا الهراسي:

يحدّد الفقيه الكيا الهراسي اللغة على النحو التالي:

" وهذا الكلام إنّما هو حرف وصوت، فإنّ تركه سدى غفلا امتدّ وطال وإن قطعه تقطع فقطعوه وجزّؤوه على حركات أعضاء الإنسان التي يخرج منها الصوت وهو من أقصى الرئة إلى منتهى الفم، فوجدوه تسعة وعشرين حرفاً لا تزيد على ذلك، ثمّ قسّموه على الحلق والصدر والشّقة واللّسان ثم رأوا أنّ الكفاية لا تقم بهذه الحروف التي هي تسعة وعشرون حرفاً، ولا يحصل له المقصود بإفرادها، فركّبوا منها الكلام ثنائياً وثلاثياً ورباعياً وخماسياً، هذا هو الأصل في التركيب، وما زاد على ذلك يستثقل فلم يضعوا كلمة أصلية زائدة على خمسة أحرف إلاّ بطريق الإلحاق والزيادة لحاجة، وكان الأصل أن يكون بإزاء كل معنى عبارة تدل عليه، غير أنّه لا يمكن ذلك، لأنّ هذه الكلمات متناهية وكيف لا تكون متناهية ومواردها ومصادره متناهية؟ فدعت الحاجة إلى وضع الأسماء المشتركة فجعلوا عبارة واحدة لمسميات عدّة "

يتضمّن تحديد الكيا الهراسي للغة المسائل التالية:

1. اللغة تتكون من كلمات.
2. الكلمات تتكون من وحدات صوتية منفصلة.
3. الكلمات متناهية لأن الأصوات اللغوية متناهية.
4. اللغة قائمة على مستويين مستوى الكلمات ومستوى الأصوات اللغوية.

5. تعريف اللغة عند ابن خلدون :

يُعرّف ابن خلدون في المقدمة بقوله " اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللّسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها "

يتضمن هذا التعريف مايلي:

1. اللغة وسيلة للتعبير.
2. اللغة فعل قصدي.

3. اللغة اصطلاح.

4. اللغة ملكة.

5. اللغة ميزة إنسانية مكتسبة.

6. تختلف اللغات من مجتمع إلى آخر.

بعد ذلك عرض الكاتب أهم التعاريف اللغة عند اللسانيين الغربيين انطلاقاً من دي سوسير الذي يرى أن "اللغة تنظيم من الإشارات المفارقة". وقد تضمن هذا التعريف القضايا التالية:

1. اللغة تنظيم من الإشارات والرموز.

2. اللغة كلمات وضعت لمعنى.

3. الوحدات اللغوية متغايرة فيما بينها.

2. تعريف اللغة عند إدوارد سابير:

يعرف سابير اللغة على النحو التالي:

"إن اللغة وسيلة لا غريزة خاصة بالإنسان يستعملها لإيصال الأفكار والمشاعر والرغبات عبر رموز يؤديها بصورة اختيارية وقصدية". تتضمن هذا التعريف مايلي:

1. اللغة وسيلة التعبير

2. اللغة قائمة على رموز.

3. اللغة القصدية.

3. تعريف اللغة عند بلومفيلد:

يرى بلومفيلد أن "الكلام هو الصوت الخاص الذي يتلفظ به الإنسان من خلال سيطرة مثير معين يختلف باختلاف المجموعات البشرية، فالبشر يتكلمون لغات متعددة.. كل طفل يترعرع في مجموعة بشرية معينة يكتسب هذه العادات الكلامية والاستجابة في سنين حياته الأولى" يضم تعريف بلومفيلد المسائل التالية:

1. اللغة أصوات.

2. اللغة عادة كلامية يكتفها المثير

3. اللغة ميزة إنسانية مكتسبة.

4. تختلف اللغات من مجتمع إلى آخر.

4. تعريف اللغة عند أندريه مارتينييه:

يرى مارتينييه أن "اللغة أداة تواصل تحلّل وفقها خبرة الإنسان بصورة مختلفة في كل تجمع إنساني عبر وحدات تشمل على محتوى دلالي وعلى عبارة صوتية (المونيمات)، وهذه العبارة الصوتية تتلفظ بدورها في وحدات مميزة متتابعة (الفونيمات) عددها محدود في كلّ لغة".

تضمن هذا التعريف المسائل التالية:

1. تختلف اللغات من مجتمع إلى آخر.
2. اللغة وسيلة تواصل.
3. اللغة تحتوي على مستويين: مستوى التراكيب ومستوى الأصوات.
4. الكلمات تتكون من وحدات صوتية منفصلة.
5. الأصوات اللغوية عددها محدود.

5. تعريف اللغة عند تشومسكي:

يحدّد تشومسكي اللغة من منطلق ما يسميه بالكفاية أو الملكة اللسانية إذ يرى أن "كلّ من يمتلك لغة معيّنة قد اكتسب في ذاته وبصورة ما تنظيم قواعد تحدد الشكل الصوتي للجملة ومحتواها الدلالي الخاص، فهذا الإنسان قد طوّر في ذاته ما نسميه بالكفاية اللغوية (الملكة اللسانية)" ويحدّدها في موضع آخر بقوله: "اللغة مجموعة جمل، كل جملة منها تحتوي على شكل فونيتيكي (صواتي) وعلى تفسير دلالي ذاتي يقترن به، وقواعد اللغة هي التنظيم الذي يفصل هذا التوافق بين الصوت والدلالة".

إن تعريف تشومسكي للغة تضمّن بشكل عام المسائل التالية:

1. اللغة مجموعة لا متناهية من الجمل.
 2. اللغة أصوات تحتوي على دلالات.
 3. اللغة ملكة.
 4. اللغة تنظيم ضمّني من القواعد.
 5. اللغة ميزة إنسانية مكتسبة.
- وفي نهاية عرضه لتعارف اللّغة، قدّم المؤلف جدولاً حصر فيه المسائل المشتركة بين اللغويين العرب القدامى واللّسانيين الغربيين على النحو التالي:

الألسنيون	العرب القدامى	تعريف
		المسائل اللغوية
+	+	اللغة أصوات: ابن جني - بلومفيلد
+	+	اللغة تتكون من وحدات صوتية منفصلة الكيا الهراسي - مارتنيه
+	+	الكلمات تحتوى على المعاني: ابن الحاجب الأسنوي، دي سوسير
+	+	الكلمات متناهية لأن الأصوات متناهية: الكيا الهراسي
+	+	اللغة قائمة على مستويين: مستوى الكلمات، ومستوى الأصوات: الكيا الهرسي، مارتنيه
+	+	اللغة مواضعة أو اصطلاح: الخفاجي ابن الحاجب الأسنوي، ابن خلدون، دي سوسير
+	+	الاصطلاح قائم بشكل أو بآخر ضمن اللغة الواحدة: الخفاجي
+	+	تختلف اللغات من مجتمع إلى آخر: ابن جني، ابن خلدون، بلومفيلد، مارتنيه
+	+	اللغة وسيلة تعبير: ابن جني، ابن خلدون، سابير، مارتنيه
+	+	اللغة فعل قصدي: ابن خلدون، سابير
+	+	اللغة ملكة إنسانية: ابن خلدون، تسومسكي
+	+	اللغة ميزة إنسانية مكتسبة: ابن خلدون، بلومفيلد، تشومسكي
+		الوحدات الصوتية متغيرة فيما بينها: دي سوسير

	+	اللغة تتكون من كلمات: الكيا الهرسي
+		اللغة تنظيم من الإشارات أو الرموز: دي سوسير.
+		اللغة تنظيم من القواعد: تشومسكي
+		اللغة عادة كلامية يكتفها المثير: بلومفيلد
+		اللغة مجموعة لا متناهية من الجمل: تشومسكي

يظهر هذا المخطط المسائل المشتركة بين العرب القدامى والألسنيين ويمكن حصرها في النقاط التالية:

1. اللغة أصوات.
2. الكلمات تتكون من وحدات صوتية منفصلة.
3. الكلمات تحتوي على المعاني.
4. اللغة قائمة على مستويين: مستوى الكلمات ومستوى الأصوات.
5. اللغة مواضعة أو اصطلاح.
6. تختلف اللغات من مجتمع إلى آخر.
7. اللغة وسيلة تعبير.
8. اللغة فعل قصدي.
9. اللغة ملكة إنسانية.
10. اللغة ميزة إنسانية مكتسبة.⁽⁷⁾

4. نقد القراءة اللسانية:

إن فهم التراث اللغوي القائم على وصفه ونقده والتمحيص فيه يتطلب من الباحثين اللغويين العرب الاعتماد على تصوّرات جديدة وأدوات معرفية حديثة تمكنهم من اكتشاف المزيد من القضايا والمسائل اللغوية من زاوية نظر أخرى، وهذا ما ظهر في إطار ما يعرف بمفهوم "القراءة اللسانية" أو إعادة قراءة التراث اللغوي العربي في ضوء الفكر اللساني المعاصر.

ولكن إلى أي مدى كان هذا المنهج مقبولا أو مرفوضا؟ وماهي أهم القضايا التي سجّلت له أو عليه؟.

أ. سليات القراءة اللسانية:

يمكن تلخيص أبرز المآخذ التي وجهت إلى القراءة اللسانية من خلال العناصر التالية:

1. أساس المقارنة:

إن أغلب الباحثين الذين رفضوا القراءة كمنهج لساني برّروا رفضهم باستخدام هذه القراءة التراث اللغوي العربي كطرف أساسي في عليمّة المقارنة، غير أن المرفوض ليس التراث بحدّ ذاته وإنّما طريقة تصوّره ومعالجته وتوظيفه، فمثلا الدكتور الفاسي الفهري رفض قطعاً عقد مقارنة بين الفكر اللغوي القديم والفكر اللغوي الحديث مبرّرا ذلك بقوله "طبعاً مواجهة الفكر اللغوي العربي القديم بالفكر اللساني المعاصر يؤدي إلى نوع من اللاتاريخية إذ يضطرنا إلى الحكم على فكر نشأ في ظروف معرفية وتكنولوجية معيّنة بمقاييس عصر وصل فيه العلم والتكنولوجيا إلى نتائج لم يعد ممكناً معها أن نأخذ بتحليل القدماء بل يمكن فقط أن نستأنس بها وأن نأخذ ببعض الجزئيات فيها"⁽⁸⁾ فهو يرفض بالجملة إطلاق الحكم على الفكر اللغوي القديم على ضوء الفكر الغربي، بل إن ما يعيننا من القديم بعض جزئياته التي تفرض نفسها وتنمّ عن حقائق لا خلاف فيها.

ب. الغاية المسبقة وغياب الموضوعية:

إن القراءة اللسانية تصنع نصب عينها غاية مسبقة وهي أن البحث اللغوي عند العرب القدامى ويتقاطع معه في العديد من القضايا، وهذا ما يبعد القراءة اللسانية عن الموضوعية، فهي تنطلق من نتيجة مسبقة متجاهلة بذلك مختلف الفروق بين المفكرين وهذا ما أكّده مصطفى غلفان بقوله: "القراءة اللسانية لا تريد إثباتاً للذات العربية الإسلامية فحسب، ولكنّها تضع التراث اللغوي العربي مع نفس مكانة البحث اللغوي الحديث متجاهلة اختلاف الأسس النظرية والمنهجية بين التفكيرين"⁽⁹⁾.

ويضيف الأستاذ ذو الفاسي الفهري في ذات السياق "إن الخطأ الأول في تصور التراث هو اعتقاد أن لابدّ من توظيفه في بناء نحو يصف اللغة العربية، ونصحّ ذلك بالقول أن التوظيف غير ضروري"⁽¹⁰⁾.

إنّ قول الفهري يشعرنا بقليل أو بكثير من الإجحاف في حق التراث اللغوي إلّا إذا كان مقصوده توظيف بعض جزئياته لا توظيفه في كليّته بالضرورة، لأننا إذا رفضنا توظيفه ولو جزئياً نكون قد ظلمنا تاريخنا اللغوي الشامخ وحكمنا عليه بالفناء.

كما نجد أن القراءة اللسانية تسعى أحياناً إلى إثبات أسبقية الفكر اللغوي العربي في كثير من النظريات اللسانية الغربية، وهذا ما أشار إليه المسدي في قوله: "فبديهي أنّنا نتناول التراث بنظرة سلفية ضيقة تجعلنا نزعّم أن العرب قد سبقوا غيرهم إلى اللسانيات جملة وتفصيلاً" (11)

وإلى جانب هذا تؤمن القراءة اللسانية بمسألة مفادها أنه لا تظهر نظرية لسانية جديدة إلّا ويكون النحو العربي قادراً على احتوائها وهذا ما يؤثر سلباً على التراث، وقد بيّن مصطفى غلفان خطورة هذا الاعتقاد بقوله: "إن جعل التراث اللغوي العربي قابلاً لأن يصاغ حاضراً ومستقبلاً في أي نظرية لسانية يُفقد خصوصيته الحضارية وهويته الحقيقية، كيف لا وهذا التراث يشكّل نسقاً معرفياً محدّداً بزمان ومكان....ومن البديهي الإقرار بفارق كبير بين العصور الوسطى والعصر الحديث والمعاصر في كل الميادين" (12)

كما دعا محمد عابد الجابري إلى التحرّر من تبعيّة التراث بقوله "يجب التحرر من الفهم الذي تؤسسه المسبقات التراثية". (13)

ج. موضوع القراءة اللسانية تأويل التراث لا دراسة اللغة:

إن قراءة الفكر اللغوي العربي القديم في ضوء الفكر اللغوي الغربي الحديث لدليل واضح على أنّ موضوع اللسانيات من منظور القراءة اللسانية العربية هو تأويل التراث وليس دراسة اللغة في حدّ ذاتها كما أكّد عليه دوسوسير، وهذا ما جعل هذه القراءة تنزاح عن الموضوع الرئيس لهذا العلم بل إن مهمة الباحث نفسها تجري مجرى آخر، وهذا ما أشار إليه مصطفى غلفان قائلاً: "فتكون مهمة الباحث أقرب ما تكون إلى باحث الفيلولوجي من حيث وضع الشروح المساعدة على فهم النصوص القديمة وتقريب فكر قديم من معاصريه باستعمال ألفاظ وتعابير حديثة، وهكذا يأتي الشرح يختلط فيه القديم والحديث" (14) إن القراءة اللسانية تعتمد على آلية تأويل النصوص واستنطاقها ويتمّ هذا الاستنطاق بعزل النصوص عن سياقاتها الأصلية فينزع النص مثلاً عن سياقه التاريخي بهدف إعطائه سياقاً جديداً، وهذا ما يجعلنا نجعل الآليات اللسانية المستخدمة في إنتاج ذلك المعنى، وضرب لنا مصطفى غلفان أمثلة عن مسألة التأويل

التقديري، بقوله " يقول أحد الباحثين أقمت مقابلات في مواضع عدّة على أمثلة من معالجات للنحو بين العرب قدّرت أن أصولها متلاقية مع أصول مناهج النظر اللّغوي ... ويقول آخر من خلال معالجة سبويه للتركيب نلاحظ أنه يفكر ضمناً في التعليق⁽¹⁵⁾

لكن كيف يمكن أن نتأكد أن سبويه أو غيره يفكر ضمناً في مسألة ما؟
ومنه فإن منهج القراءة اللسانية لا يمكن أن يوصلنا إلى نتائج مؤكدة دقيقة، فالقراءة اللسانية تقدم لنا كتلة من الأحكام القيّمة الذاتية التي تفتقر إلى ما يحصّها وقد أكد على هذه الفكرة مصطفى غلفان بقوله: " التأويل الذي تقوم عليه القراءة ليس تأويلاً مضبوطاً، لأنّ القراءة في جوهرها مجموعة من التقديرات المقدمة في شكل حدس وتخمينات⁽¹⁶⁾

هذه جملة من السلبيات التي قزّمت من نجاعة القراءة اللسانية لكنها في الوقت ذاته كانت بمثابة دافع إيجابي استغلّته في تعديل منطلقاتها وتصوّراتها ومنهجيتها

إيجابيات القراءة اللسانية:

إن القراءة اللسانية تشجّع العودة إلى التراث لأنه ضمير الأمة وماضيها فلا تحديد بدون تراث وهذا ما أكّده الجابري في قوله " إن عملية التجديد لا يمكن أن تتمّ إلا بالحفر داخل ثقافة هذه الأمة وبالتعامل العقلاني النقدي مع ماضيها⁽¹⁷⁾ فلا عيب إذن من قراءة التراث اللساني بهدف إحياء النظريات اللسانية العربية وجعلها معاصرة للنظريات اللسانية الحديثة " فلا غرابة أن تعدّ قراءة التراث تأسيساً للمستقبل على أصول الماضي بما يسمح ببعث الجديد عبر إحياء المكتسب⁽¹⁸⁾.

إن القراءة اللسانية أدركت أهمية التراث لذلك أقامت مقابلاتها على التراث اللساني العربي كطرف أساسي مقابل النظريات اللسانية الحديثة، كما أن هذه المقارنة تمكّنتنا من التعرّف على إبداع الفكر العربي اللساني القديم الذي اتّهم في أكثر من مرة بالجمود من قبل البحث اللساني الغربي الذي أقرّ بتفوّق العرب في المجال الصوتي وما عادها فلا شيء يذكر.

إن اطلاعنا من خلال المقارنة على الجهود التي بذلها اللغويون القدامى تجعلنا ننظر إلى الفكر الغربي نظرة موضوعية بعيدة عن كلّ انبهار إذ يرى مصطفى غلفان أن " القراءة وسيلة تقينا خطر الانبهار بما قد يتوهّم البعض به أن الفكر الخلاق إنما هو فكر الآخر غير العربي⁽¹⁹⁾.

وإن أطلنا في الحديث عن أهمية التراث فلا شيء سوى لأن القراءة اللسانية عيب عليها تمجيد الماضي وتقديسه، ومع ذلك فإن القراءة اللسانية بعودتها للتراث تظهر مدى استمرارية الفكر اللغوي عبر الزمان، كما أنّها تقدم للقارئ العربي جملة من المفاهيم اللسانية الغربية والنظريات الحديثة التي تمكّنه من التعرف على الفكر اللساني الغربي الحديث وأبرز أعلامه، لهذا دعا حسام البهنساوي إلى تبني القراءة كمنهج لساني إذ قال: "إن إلقاء الضوء على مدى التقاء الفكر اللغوي العربي القديم واختلافه مع مناهج البحث اللغوي الحديث أم ينبغي أن تتبناه المؤسسات المعنية"⁽²⁰⁾

غير أن هذا التبنى سدّ بعض عيوب ومآخذ القراءة اللسانية وذلك بالتعامل أولاً مع اللغة العربية لأنّها موضوع الدراسة التي يجب أن تحضى بالملاحظة والشرح والتحليل ومنه عدم تغييب الواقع اللغوي والاقتصار على التعامل مع الماضي، فنقدّم أعمالاً لسانية تنطلق من اللغة العربية موضوعاً لها.

وقد قدّم لنا مصطفى غلفان ما يضمن لقراءتنا الفعالية ويضفي عليها ثوب الموضوعية بحيث اقترح ضرورة التمييز بين موقفين في كل قراءة لسانية:

موقف حضاري: تكون فيه القراءة وسيلة تكفل لنا التعرف على ذواتنا وتسمح لنا بإبراز خصوصيتنا أمام تحديات العصر، وفي هذا الاتجاه تصبح القراءة وسيلة ناجحة للتعريف بالتراث اللغوي العربي.

موقف علمي: إنّ الموقف العلمي السليم يقتضي منّا أن ننظر إلى التراث اللغوي العربي باعتباره نتاج مرحلة من مراحل الفكر الإنساني التي تفاعلت مع مراحل أخرى.⁽²¹⁾

وخير ما نختم به مقولة لعبد السلام المسدي بخصوص التراث العربي "إن التراث العربي جزء من التراث الإنساني، فهو إذا ملك مشاع بين رواد المعرفة البشرية، وحرام أن يظل مغلق الأبواب أمام بصائرهم، فبقراءتنا للتراث العربي لا نقدم فحسب خدمة لميراثنا ولا نقدم جميلاً لذواتنا فقط وإنّما نغدق على الفكر الإنساني بوابل الإسهام، فتتحول علاقتنا بعلم اللسان الحديث تحوّلًا طبيعيًا من مركز الخصيم إلى موقع النصير"⁽²²⁾

ولا يحدث هذا إلا بالوقوف عند أهم المسائل اللسانية التي تداولها العرب القدماء بدقة علمية معتمدين في ذلك على أعمال الفكر فقدموا آراء وأفكاراً متطورة في مجال تحليل اللغة والتي يمكن الاستفادة منها في يومنا هذا من أجل تطوير لسانيات عربية حديثة.

هوامش البحث:

1. حسام البهنساوي، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ط)، 1994، ص 02.
2. ابن منظور لسان العرب، مج 1، دار صادر، بيروت، ص 128 / 129.
3. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والاسس النظرية والمنهجية، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (د.ط) و (د.ت)، ص 135.
4. المرجع نفسه، ص 153.
- * اعتمادنا في تحديد الأنواع على تقسيم مصطفى غلفان في كتابه " اللسانيات العربية الحديثة، ينظر ص 136 إلى 139.
5. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار المغربية للكتاب، ط 1، 1981، ص 8.
6. ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1992، ص 7.
- * اعتمادنا في تحديد معنى اللغة على ما ورد في كتاب ميشال زكريا، "بحوث ألسنية عربية، ينظر ص 59 إلى 69، ومن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدها المؤلف في موضوعه ينظر:
 - ابن جني، الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، بيروت، دار الهدى، ط 2 ج 1.
 - جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، القاهرة، ج 1
 - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1961.
 - A marlinent, Element de Inguistique générale, 4 tirages, Pairs, 1997.
 - F. de Sussure, cours de linguistique générale, Paris, 1969.
 - N.Chomsky, le langage et la pensée, Paris, 1970
 - E-spir, Language, Newyork, 1921.
 - L-Bloomfield, Language, London, 1935.
7. ينظر ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، ص 71، 72.
8. الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، ج 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1998، ص 61.
9. مصطفى غلفان، اللسانيات الحديثة، ص 149.
10. فاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ص 60.
11. عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، (د.ت) و (د.ت)
12. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص 157.

13. محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1991، ص32.
14. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص23.
15. المرجع نفسه، ص156.
16. المرجع نفسه، ص148.
17. محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، ص33.
18. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص12.
19. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص163.
20. حسام البهنساوي، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، ص7.
21. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص164.
22. عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص176.